في الذاكرة

إبراهيم الدقاق*

حيدر عبد الشافي

ليس هذا رثاء لحيدر عبد الشافي، لكنه تعزية للذين فقدوه فافتقدوه: زوجته الفاضلة وابنته وأبناؤه الثلاثة، وزملاؤه ورفاقه ومحبوه؛ ومع هؤلاء كلهم شعبه الفلسطيني الذي أحبه وكرّمه في حياته وفي مماته. أغمض حيدر عبد الشافي عينيه بعد أن نال منهما العبث الجاري على الساحة السياسية.

لا تستطيع معرفة حيدر عبد الشافي بما تسمعه عنه، أو إذا صادف أن التقيته في لقاء عابر. أنت تقترب من معرفة حيدر عبد الشافي إذا عايشته. وكان لي شرف الاقتراب منه ومعايشته في بعض نشاطاته في الميدان العام. والميدان العام واسع يضم النشاطات الاجتماعية والسياسية ونشاطات أُخرى. أقول: اقتربت منه وعايشته في الجبهة الوطنية الفلسطينية، وفي مجلس التعليم العالي في فلسطين (قبل قيام السلطة)، وفي نشاط لجنة التوجيه الوطني، وفي الملتقى الفكري العربي، وفي مجلس أمناء جامعة بير زيت، وخلال ترؤسه الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١، وخلال مفاوضات واشنطن. واشتركنا معاً في لقاءات على المستويين المحلي مع أهلنا في فلسطين، ومع الإسرائيليين، وفي أُطر دولية رعتها الأمم المتحدة، أو مؤسسات دولية. ولبينا دعوة إلى زيارة موسكو ولينينغراد، وزرته في بيته في الرمال في غزة، وزارني في بيتي. وعرفت عائلته وعرف عائلتي؛ ونشأت مودة: مودة المحبة الشخصية، ومودة المشاركة والزمالة والأخوة. عايشت حيدر عبد الشافي وبقينا على اتصال حتى بعد إغلاق إسرائيل القطاع على أهله. وفي الحالة الأخيرة كان الهاتف وسيلتنا.

◆ ◆ ◆

حياة حيدر عبد الشافي أوسع من أن تعبّر عنها كلمات. فهي حياة إنسان عرك الحياة وعركته، فعجزت الكلمات عن التعبير عن مضمونها. وكان حين يتحدث عن ذكرياته يطوف على أحداث مثيرة شارك فيها أو شهدها، أو يستعيد بعض أبعادها. وأذكر أنه تحدث عن علاقته بالأمير طلال بن عبد الله (الملك طلال فيما بعد) بعد انخراطه طبيباً في الجيش الأردني في إثر تخرجه من الجامعة الأميركية في بيروت، وتحدث عن بعض أفكار الأمير وهواجسه وشكوكه. فقد كان الأمير من زملائه في الوحدة التي خدم فيها. ترك الخدمة في الجيش، إذ كان الجيش أضيق من طموحاته، وأخفض سقفاً من تطلعاته. تخصص بالجراحة في الولايات المتحدة بعد ذلك، ليعود إلى غزة، كي يبقى

* كاتب فلسطيني مقيم في القدس.

حيدر عبد الشافي، رئيس الوفد الفلسطيني إلى مفاوضات السلام التي عقبت مؤتمر مدريد، على مدخل وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن، ١٩٩٣/٩/٧. المصدر: وكالة الصحافة الفرنسية.

حيدر عبد الشافي مع الرئيس ياسر عرفات خلال اجتماع عقد في عمّان بتاريخ ١٩٩٣/٦/٨، بين قادة منظمة التحرير الفلسطينية وأعضاء الوفد الفلسطيني إلى مفاوضات السلام. المصدر: وكالة الصحافة الفرنسية.

فيها لأنه أراد البقاء فيها. وتستمر حياته فيها مرشداً وموجهاً وناصحاً، بالإضافة إلى ممارسة مهنته. ويحمل شرف الشخصية الوطنية في القطاع، والمرجعية الموثوق بها، ليُنتخب رئيساً للمجلس التشريعي في إبان الإدارة المصرية، وليصبح عضواً مؤسساً لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد ذلك، وعضواً في لجنتها التنفيذية. لكنه لم يجد في الأخيرة طموحه. كان معنياً ببناء دولة فلسطينية سيادية مع الإصرار الشديد على إشاعة الديمقراطية الحقة فيها. لكن المناخ السائد في المنظمة لم يرقَ إلى طموحه، فتركها.

◆◆◆

بعد احتلال إسرائيل بقية فلسطين في حزيران/يونيو ١٩٦٧، بقي في موقعه، في المقدمة. كان الاحتلال عائقاً للدولة التي حلم بها، وكان التخلف عائقاً آخر. تخلصت إسرائيل من نشاطه بالنفي مرتين: مرة إلى النقب ومرة إلى لبنان. لكنه عاد، ليستأنف نشاطه. وعلى الرغم من العنت الذي لاقاه من الاحتلال ومن غيره فقد استمر في عطائه. فبادر إلى إنشاء جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني. وبعد إنشائه لها ونجاحه في قيادتها، أصبح الهلال الأحمر في غزة مطمع الطامعين من الاحتلال، ومن بعض الذين عز عليهم نجاحه. شب حريق في المبنى الذي يشغله الهلال فتحوّل بمحتوياته إلى ركام. وعلى الرغم من ذلك فقد أعاد بناءه، وقاده من نجاح إلى نجاح حتى مماته. وللوقوف معه، وتضامناً مع الهلال الأحمر، سافرت مع مأمون السيد – رئيس تحرير صحيفة «الفجر» المقدسية آنذاك – من القدس إلى غزة. كانت غزة عندما وصلنا إليها أشبه بمدينة أشباح، والمرور بشوارعها أشبه بالمرور داخل مدينة ضربتها الأعاصير: لا إنسان في الشارع، ولا أماكن مفتوحة، ولا سيارات تتحرك. وصلنا إلى بيته، وكان مع عائلته. كان هادئاً مستريح البال كعادته. وفي مجرى الحديث معه، ذكر لنا أن القائد العسكري الإسرائيلي أرسل جنوداً لحراسته من خطر الاغتيال. هكذا زعم القائد العسكري. لكن حيدر رفض عرض القائد وطلب منه سحب جنوده فوراً، وتم له ما أراد. واستمر صامداً مع عائلته يتحدى القدر. وفي حينه عرفت اسم مشعل النار والساعي إلى الفتنة. كان أحد المنتمين إلى أحد التنظيمات الفلسطينية أو إلى أحد الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، والأمر سيان. فقد فشل مشعل النار في إحداث الفتنة التي سعى إليها، ومات لاحقاً، ونسي كثيرون إسمه، لكنهم ما زالوا يذكرون وقفة حيدر عبد الشافي التي أفشلت المؤامرة.

◆◆◆

كان علينا، نحن الذين بقينا تحت الاحتلال الإسرائيلي سنة ١٩٦٧، أن نتداول أمورنا وأن نساهم في حل المشكلات التي نشأت. سارت الأمور على مستويين: في البداية، واجهت غزة الوضع الذي استجد بعد حزيران/يونيو بالمقاومة المسلحة، بينما اختارت الضفة الغربية طريق المقاومة السلمية. ونشأت الجبهة الوطنية المتحدة لتقود العمل في غزة. وتحرك ضباط وجنود جيش التحرير الفلسطيني الذين بقوا فيها للقيام بواجبهم الوطني. دخلوا في مناوشات مع الاحتلال، لكنها كانت محاولات يائسة. تبعثرت القوى المسلحة الفلسطينية، واستشهد من استشهد، وهرب من هرب من بطش الاحتلال. لكن أحد ضباط جيش التحرير الفلسطيني (زياد الحسيني) التجأ إلى بيت المرحوم رشاد الشوا في غزة، لتصيبه رصاصة في الرأس بعد فترة وجيزة ويموت. كثرت

الظنون بشأن الفاعل، وكثرت الاتهامات. دعا المرحوم رشاد الشوا الدكتور حيدر عبد الشافي إلى فحص الحالة، فتأكد من انتحار الضابط، وبرّأت شهادته مَنْ وُجِّه إليهم إصبع الاتهام، أو دارت حولهم الشكوك.

على الرغم من نضال الجبهة الوطنية المتحدة ومؤسسات الضفة الغربية، فإن الاحتلال الإسرائيلي لم ينسحب من غزة ولا من الضفة الغربية. كما أنه لم يستجب للمحاولات الخارجية والداخلية الداعية إلى التزام القرارات الدولية التي تنص على ذلك. وكانت النتيجة نشوب حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣. تحركت الفئات المعنية بمصير البلد لدراسة النتائج واستخلاص العبر. وعقد اجتماع في بيت حيدر عبد الشافي مساء يوم ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٣، في الشرفة الخلفية من البيت. حضر الاجتماع كريم خلف، وعبد الجواد صالح، وأحمد حمزه النتشه، وزهير الريس، وخلدون عبد الحق، وكنت بين الحضور. قرأ حيدر مسودة رسالة موجهة إلى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تبين وجهة نظر الداخل في المواقف التي يرى اتخاذها في ظل التطورات التي استجدت، وكان في مقدمها تبعات حرب تشرين الأول/أكتوبر على الوضع الفلسطيني. جرى نقاش مسؤول، وكان من الاقتراحات التي قبلت، ضرورة إعادة صوغ الرسالة، وضرورة صوغ النظام الأساسي للجبهة. كُلِّفتُ مع زهير الريس إعادة عملية الصوغ وتضمينها رفض اعتبار الأرض المحتلة «أرضاً متروكة» (Terra Nullius) – كما أشاعت إسرائيل – وأنها لا تعود إلى الشعب الفلسطيني؛ أي أن الأرض الفلسطينية خالية من السيادة، وأن لإسرائيل الحق الأول فيها استناداً إلى دعاواها التاريخية والدينية. تمت عملية الصوغ الجديدة كما اتفق، لتتلقفها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وتنشرها في عدة وسائل إعلام في نيسان/أبريل ١٩٧٤.

جاءت نتائج حرب ١٩٧٣ السياسية على عكس النتائج العسكرية؛ فقد زار الرئيس السادات القدس ليقلب، بزيارته تلك، النتائج الإيجابية ويحولها إلى حركة سعت للتوافق مع إسرائيل على مبادئ سبق أن رفضها العرب، وانتهت بتوقيع اتفاق سلام منفرد بين مصر وإسرائيل في سنة ١٩٧٩.

تلقت الجبهة الوطنية من الاحتلال العديد من الضربات الموجعة. فقد أبعدت إسرائيل كثيرين من قادتها والعاملين في إطارها، وتمت ملاحقة آخرين بالسجن والإقامات الجبرية. لكن جذوة النضال بقيت مشتعلة. وفيما بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٧٩ جرت عدة أمور، كان من أبرزها عقد قمة الرباط في سنة ١٩٧٤، ودعوة إسرائيل إلى إجراء انتخابات للبلديات والمجالس القروية في الضفة الغربية. وقد جندت الجبهة الوطنية طاقات كبيرة للتعامل مع الحالتين. أعد حيدر عبد الشافي مذكرة موجهة إلى القمة تشدد على وحدانية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني ورفض أي مشاركة في التمثيل من أي جهة عربية. ووقّع المذكرة عدد كبير من قادة المجتمع المدني ورؤساء المجالس البلدية وأعضائها. وفي رحلتي إلى دمشق، قابلت ياسر عرفات في بيت عبد المحسن أبو ميزر، وكان ذلك في رمضان سنة ١٩٧٤، وأعلمته بما أعددنا، فوقف منتشياً وقال: «دي حتفرقع الدنيا». وكانت النتيجة كما توقع الجميع؛ فقد كانت المذكرة التي اعتمدها مؤتمر قمة الرباط فاتحة لمزيد من الانتصارات للفلسطينيين.

لم تقف إسرائيل مكتوفة اليدين، فدعت إلى انتخابات للمجالس البلدية والقروية آملة بإبراز قيادة بديلة من منظمة التحرير. حشدت الجبهة الوطنية إمكاناتها لخوض المعركة، فاكتسح مرشحوها الأغلبية العظمى من مقاعد تلك المجالس. وقد أصيبت إسرائيل بخيبة أمل، وأصيبت الولايات

المتحدة بالمثل. وبدأت إسرائيل حملة ضد البلديات الوطنية المنتخبة، ولم توقف حملتها ضد الجبهة والمنتسبين إليها، إلى أن توقفت الجبهة عن العمل بعد الضربات الشديدة التي تلقتها. وشنت منظمات يمينية إسرائيلية متطرفة في وقت لاحق حملة تفجيرات كان بين ضحاياها المرحوم كريم خلف الذي فقد جزءاً من قدمه، وبسام الشكعة الذي فقد ساقيه، ونجا آخرون.

كان توقف الجبهة حافزاً على استمرار بذل الجهود لإعادة بنائها على أسس جديدة. جرت مشاورات في دمشق بين الفصائل الفلسطينية تمحور معظمها حول الحصص وصناعة القرار وضمان سيطرة الخارج الفلسطيني على القرار الفلسطيني في الداخل. وحدثت اتصالات في الضفة والقطاع لتنسيق الجهود والعودة إلى الوضع الجبهوي. واستغلت القوى الوطنية تطورات الموقف الدولي والعربي بعد زيارة السادات للقدس فدعت إلى لقاء في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٨ في مجمع النقابات المهنية في بيت حنينا في القدس لمناقشة الوضع كُلفت شخصياً إدارته. حضر اللقاء ممثلون عن التشكيلات الاجتماعية والسياسية والدينية، وكان في مقدمهم المرحوم الشيخ حلمي المحتسب، والنائب البطريركي للروم الكاثوليك المطران لطفي لحام، ورؤساء البلديات والمجالس القروية. وأُطلق على الاجتماع «مؤتمر القدس». وكان موقف الحاضرين واضحاً برفض زيارة السادات للقدس، وإن اختلفت الآراء بشأن الخطوات العملية لزيادة التنسيق بين القوى الحاضرة من أجل مواصلة النضال. وكان التتويج اقتراحاً بتأليف لجنة متابعة.

في اجتماع اللجنة الأول في مجمع النقابات، اقترح حيدر عبد الشافي أن تكون اللجنة علنية، وأن تمارس النضال جهاراً نهاراً. وأشار أحد الحاضرين إلى وجود قانون كانت حكومة سليمان النابلسي أصدرته في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي يقضي بتأليف لجان للتوجيه الوطني، من الممكن الاستفادة منه في حالة المواجهة مع سلطة الاحتلال. وبناء على ذلك تمت تسمية اللجنة «لجنة التوجيه الوطني»، وعملت علناً، وأعلنت أسماء أعضائها.

كان من النشاطات التي قامت بها اللجنة عقد مؤتمرات في جامعة بير زيت، وفي جامعة النجاح في نابلس، وفي جامعة بيت لحم. وكانت تزمع عقد اجتماع في غزة، لكن التهديد بإغلاق القطاع وتدمير السيارات القادمة والاعتداء على الآتين من الضفة للمشاركة في الاحتفال، أدى إلى تغيير الخطة والتخلي عن عقد الاجتماع.

واجهت لجنة التوجيه الوطني، التي أعلنت منذ البداية أنها ذراع منظمة التحرير في الأرض المحتلة، صعوبات في التعامل مع قيادة المنظمة في الخارج. وفي جلسة في بيتي جمعتني بحيدر عبد الشافي أسرّ إلي بتخوفه من سعي القيادة لتوظيف اللجنة في خدمة تطلعاتها السياسية. وجاء تخوفه نتيجة الضغوط السياسية العربية والخارجية لحرف مسارها النضالي. وكان من رأيه أن بُعد قيادة اللجنة عن الضغوط الخارجية يشكل متنفساً لقيادة المنظمة في الخارج، ويسمح للأولى بتقديم الدعم للثانية في حالة تنامي الضغط. اختلفت الرؤيتان الداخلية والخارجية، وكان ما كان، وهذا حديث آخر ليس هنا مكانه.

لم تتوان السلطة الإسرائيلية عن التنكيل باللجنة وأعضائها، وخصوصاً بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢. وكان شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، قد انتوى – كما صرح قائد الضفة الغربية في الجيش الإسرائيلي – «القضاء على البرعم في مطلعه.» وكان البرعم الذي تحدث عنه شارون القيادة الوطنية في الداخل. ولم يترك وسيلة لضرب اللجنة إلا لجأ إليها. توقفت اللجنة عن

القيام بأي نشاط، لكن الفلسطينيين عبروا عن سخطهم بالانتفاضة الشعبية العظيمة التي تفجرت سنة ١٩٨٧.

• • •

دعت الولايات المتحدة إلى عقد مؤتمر مدريد في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١. طلبت قيادة المنظمة من حيدر عبد الشافي ترؤس الوفد الفلسطيني في إطار وفد أردني – فلسطيني مشترك برئاسة كامل أبو جابر (وكان يرئس الوفد الأردني عبد السلام المجالي). حضر حيدر إلى القدس لإجراء التشاور، واجتمعت به مع المرحوم بشير البرغوثي في الفندق الوطني، وكان كلانا مؤيداً للقبول بالتكليف. وفي ظني أنه شاور آخرين قبل أن يعلن قبوله الرسمي بالتكليف. وفيما بين اجتماعات المفاوضات كان يحرص على القدوم إلى القدس. وكان يبدي تبرمه من رئاسة الوفد الأردني، وعدم رضاه عن مواقف قيادة المنظمة، التي كانت في حقيقتها بعيدة عن قناعاته وقناعات الحركة الوطنية في الأرض المحتلة، وبعيدة عن تصريحاتها الرسمية. وتبين أنه كان محقاً في شكه على الرغم من استمراره في أداء مهمته. فقد تم إعلان اتفاق أوسلو، ولم يكن عبد الشافي على دراية بما كان يجري في الخفاء. وفي وقت لاحق تبين أن المرحوم بشير البرغوثي كان على علم بالنتيجة قبل إعلانها رسمياً. فقد بلّغه المرحوم ياسر عرفات مضمونها في جلسة بينهما في تونس.

عاد حيدر عبد الشافي إلى حدس الشارع. وكان الشارع هو المكان الذي يستريح إليه. حاول إنشاء «حركة البناء الديمقراطي»، وطلب مني الانضمام إليها، لكنني ابتعدت لقناعتي بعدم الجدوى. غير أنه سار في الطريق حتى وصل إلى قناعة بأن الاستمرار في الحركة وصل إلى طريق مسدود. وأسرّ إليّ في حينه بأن بعض أفرادها يسعى وراء مصالحه الخاصة.

كانت آخر محاولاته السياسية نشاطه في المجلس التشريعي الفلسطيني الذي انتُخب عضواً فيه، والذي استقال منه لغياب الممارسة الديمقراطية وعدم تنفيذ قراراته بسبب هيمنة السلطة التنفيذية. وودّع الحياة السياسية، وأغلقت إسرائيل القطاع على من فيه، وكان ذلك نهاية اللقاءات بيننا.

• • •

تدخل قراءة حيدر عبد الشافي وفكره في نطاق السهل الممتنع. كان حيدر صلباً في لين، ولين متمسكاً بقناعاته الوطنية. فهو نسيج من إنسان عروبي ماركسي إسلامي، رأى فيه أتباع هذه التوجهات ما يريحهم، وأنكروا عليه عدم الانتماء إلى أي منها. كان توليفة جامعة مانعة بناها على قاعدة من القيم الإنسانية، مستلهماً المكان والتاريخ العربي الإسلامي. وبتعبير آخر: كان في سلوكه أصيلاً، تنبع أصالته من جدلية العلاقة بين التمسك بالحق وبين الكياسة في الوصول إليه، أو ما أسميه إصرار المناضل للوصول إلى ما يؤمن بأنه الحق، بخلق عال وسلوك حضاري. كان نسيجه الفكري والنفسي هو «الشيء» الذي لم تعرفه الحركات والفصائل الفلسطينية، ولم تفهمه، ولم تتمكن من الوصول إليه.

طبت يا حيدر في حياتك، وذكراك باقية أبداً.›